الخَانَات والفَنَادِق في الحَضَارَة الإسْلَاميّة

«منذ نشوئِها وحتّى سقوطِ الدّولةِ الإسْلَاميّة بسقوطِ بغداد ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م»

«خَانَات بلاد الشّام أنموذجًا»

ليندا إبراهيم (*)

تمهيد

شـكَّلَتْ الخَانَات منذ نشـوئها مطلـعَ الحَضَارَة الإسْـلَاميّة الوليدة، مَعْلَمًـا لفكرة حَضاريةٍ جوهريَّـةٍ تمثِّـلُ، إلى جانب فكـرةِ كونِها مكانًا لإيواء المُسَـافِرين وبضائعهـم، مركزًا تجاريًّا وحضاريًّـا متقدِّمًا ليكـون نواةَ التّبادل التّجاري فالثَّقافي فالحضـاري، وفي الوقت عينه نواةً لما عُرِفَ لاحقًا بالفَنَادِق وما لها من أثرٍ حضاريٍّ تجاريٍّ سياحيٍّ ثقافيٍّ في حياة الدّول.

وإننا إذ نتصدَّى في بحثنا هذا للخَانَات نشوءًا وتشكُّلًا وأهمِّيَّةً في الحِقبَة منذ صعودِ الدّولة الإسْلَاميّة النّاشئة، وحتى سـقوط الدّولة العبَّاسيَّة متمثلة بسقوط عاصمتها بغداد عام ٦٥٦ هـ، ١٢٥٨م، فإننـا نتصدَّى لواحـدٍ من أهمِّ معالم هـذه الحَضَارَة وملامحهـا، التي أثَّرت في حضارات الشّعوب الأخرى، وتحدَّث عنها معظمُ الرَّحَّالة والأدباء والباحثين والعُلماء، ومختلفُ الشّـخصيَّات من المؤرِّخين من أبنائها أو مِمَّن حَلُّوا بها أو زاروها بغرض السّياحة أو التّوثيق والبَحث.

(*)سورية .

الكلمات المفتاحية: الخانات، الفنادق، القَيسَاريّة، العصور الإسلامية

لمحة تاريخية

عُرِفَتْ الخَانَات من حيث شكلُها ومفهومُها ووظيفتُها منذ مطلع العَصر الإسْلَاميّ، ولعلَّ أقدمَ خانٍ أنشئَ في هذا العَصر هو الخَان الذي بناه الخَليفَة هشامُ بنُ عبد الملك سنة ١٠٩هـ/٧٢٨م، في مكانٍ غيرِ بعيدٍ عن «قصر الحير الغربي» الكائن حاليًا في البادية السّورية[١].

ومن اللافت إرجاع فكرة وجود الخَانَات لأول مرة إلى «أنَّ البداية كانت من العَصر الجَاهِلِيّ، فكانت هناكَ أماكنُ أو مناطقُ مُعيَّنة تتوقَّفُ عندها قوافلُ التّجارة والقبائل، كان يُطْلَقُ عليها في العَصر الجَاهِلِيّ كلمة «منزل»، وأصبحت هذه الكلمة مستخدمة طيلة العَصر الجَاهِلِيّ، واستمرت أيضًا في العَصر الإسْلَاميّ، ومن هنا يمكننا أن نقولَ إنَّ المنزلَ في العَصر الجَاهِلِيّ لاستقبال القوافل والقبائل، هو بداية لفكرة إنشاء الخَانَات، ثمَّ تأتي المرحلة الثّانية لتطوُّر فكرة إنشائها وهي «دار الضّيافَة»، التي أنشاها الخَليفَة عمر بن عبد العزيز في بداية العَصر الإسْلَاميّ، في العديد من المُدُن الإسْلَاميّة، وفي بعض المَنازِلِ المُهمّة على طريق الحَجِّ، وكانت هذه الدّور تُقَدِّمُ الضّيافَة من الطّعام والشّراب، واستمرت هذه المُنشَآت تؤدّي وظيفتَها حتى نهاية العَصر الأيوبي، ومن ثمَّ أطلق على الخَانَات التي ظهرت وكانت تقدِّم الطّعام مجانًا «خانًا» أو «فُندُقا»، وفي أكثر الأحيان «خان السّبيل»، واستمرت دار الضّيافَة مستخدمة إلى جانب الخَانَات حتى نهاية العَصر المملوكي، وبعدها انهارت مع انهيار الدّولة المَملوكيّة[٢]»

إلا أنَّ ما يهمُّنا في هذا البَحث هي الخَانَات التي أنشئت وازدهرتْ في الفَترةِ المُحدَّدة لبحثِنا، أي منذ فجرِ الدّولةِ الإسْلَاميّة وحتى زوالِ الدّولة العبَّاسيَّة بسقوطِ عاصمتِها بغدادَ، خَانَاتُ بلاد الشّام تحديدًا.

وعليه، ففي بلاد الشّام، وبسبب موقعها الجغرافي الاستراتيجي الهام كصلة وصل بين قارَّات العالم القديم، ولما تمتلكُهُ من ممرَّات مائيَّة وبريَّة على طول طريق التّجارة، ومُتاخَمتِها لآسيا الصّغرى عبر ثغور الأناضول شمالًا، فقد بدأ القائمون بأمر البلاد بإنشاء محطَّاتٍ تجاريَّةٍ على امتداد هذه الطّرُق. ونظرًا لأهميَّة دمشقَ عبر التّاريخ كونها مركزَ إشعاعٍ حضاريٍّ وثقافيٍّ وتجاريٍّ تلتقي عنده أهمُّ الطّرُق من الشّمال إلى الجنوب، ومن الشّرق إلى الغرب، فكانت أهمُّ الخَانَات عبر العصور...

«وقد انتشرت الخَانَات على طول الطّرُق التّجاريّة الدّوليّة الرئيسة بين المُدُن الإسْلَاميّة، وكان أكثرُ رُوَّادها من التّجَّار وطلبة العلم، فكانت هذه الدّورُ تُقَدِّم الضّيافَة من الطّعام والشّراب مجَّانًا للفُقراء والمساكين وأبناء السّبيل، ومن ثَمَّ أُطلق على الخَانَات التي ظهرت وكانت تُقَدِّم الطّعام مجانًا اسم «دار الضّيافَة[٣]»، ويبدو «أن مصطلحَ «خان» قد توسَّع استخدامُهُ منذ القرن السابع الهجري،الثالث عشر الميلادي؛ ليحلَّ محلَّ كُلّ الأسماءِ السّابقة التي أطلقت على استراحات

(١) ابن جبير، محمد بن أحمد الكناني الأندلسي، رحلة ابن جبير. القاهرة. الهيئة العامة لقصور الثقافة، ط٢، ١٩٩٨

(٢) يُنظر: «الخَانَات، مُنشَآت فندقية تحكي قصة حضارة» خلف أحمد محمود أبو زيد.

(٣) يحيى. فؤاد. جرد أثري لخَانَات دمشق. مقال، مجلة الحوليّات الأثريّة، دمشق، مجلد٣١، ١٩٨١، ص٦٩.

المُسَــافِرين في الفترات السّــابقة، مثل مصطلح «الدار» الذي شاع في الشّام والعراق خلال القرن ٥هـ/ ١١م للدَّلالة على هذه الاســتراحات. وهناك مصطلحا «دار الوكالة» و «سراي القوافل» اللذان كانا يســتخدمان للدَّلالة على اســتراحات التّجَّار داخل المُدُن في القرن الســادس الهجري،الثاني عشــر الميــلادي، وكذلــك مصطلحــا «الفُنــدُق» و«القَيسَــاريَّة» اللــذان شــاعا في القرن الســابع الهجري،الثالث عشر الميلادي»[٤].

لاحقًا، وبمرور الزّمن، وتطور الأساليب التّجارية مع تطور وســائل النّقل، وتحــوُّل طريق الحرير البرِّي إلــى الطّريق البحري عبر قناة السّــويس، نجــد أن الانفصــال بيــن وظيفة الخَــان ووظيفةِ الفُنــدُق قــد حصلت بســبب أن التّجــارة القادِمَة بطريقِ البرِّ بوســائلَ قديمةٍ كالجمالِ والبغالِ لم تعدْ واردةً، وصار وجود الفُندُق ضرورة.

حيــث أصبح التّجار يتحركون كُلّ إلى وِجهتِه، لعقد الصّفقات دون مرافقة رواحِلهم وبضائعهم، فانتفت الحاجة للإسطبلاتِ والمُستودَعات، بينما دَعتْ الحاجةُ لنشوءِ خدمات جديدة لتطوير أمكنة النّوم وخدماتها وكل ما يتصل بها .

أصل التّسمية:

لغــةً: (خان): اســم، الجمع: خَانَــات، والخَانُ: الفُنــدُق، الخَانُ: الحانوتُ، الخَانُ: المَتْجَر، الخَانُ: الحاكمُ، الخَانُ: الأمير[٥].

اصطلاحًا: الخــان: الفُنــدُق، الحانوت، والمَتجرُ، أيضًا يطلق على الأمير[٦].

الخَان: الحانوت أو صاحبُه وخان التُّجَّار[٧].

و«خان» [مفرد]: ج خَانَات: مَتْجر، حانوت، وكالة وسوق «باع سِلَعه في خانٍ عتيق».[٨].

والخانُ، حســب ابن منظور، كلمة فارسية الأصل وتعني المنزل، وقد تطوَّرت دلالتها حتى أصبحت تُطْلَقُ على المكان المخصَّص للمُسَافِرين والتجّار وطلبة العلم وغيرهم، يقول في «لســان العرب»: «والخَــان الحانُوتُ أَو صاحب الحانوتِ؛ فارســي معرّب، وقيل الخَان الذي للتِّجارِ»[٩].

«فالخَان مبنىً محصَّنٌ يتيح للمُسَــافِرين فرصةً للراحة وحماية دوابِّهم وبضائعهم، كان يلجأ إليه التّجَّار والمُسَافِرون على طرق القوافل المنتشرة فــي الشّــرق القديــم»[١٠] وهذا المبنــى كان على طابقين الأول «الأرضــي» أمكنة لتبادل البضائع، ونشــرها، ويحتــوي إســطبلًا للجمــال والبغــال والــدّواب التــي تنقل البضائــع، والطَّابــق الثّاني بمنزلة فُندُق ينام فيه التّجَّار وأصحابُ القوافل.

والخَــان فــي الأســاس كانت له وظائــفُ عدَّة، الوظيفة الأساسية في الطّابق الأرضي، حيث كان أماكنَ للبضائــع المختلفة التي تأتي عبر القوافل

(٤) ياغــي، غــزوان، المعالــم الأثرية للحضارة الإسْــلَاميّة في ســورية، المنظمة الإسْــلَاميّة للتربية والثقافــة والعلوم، الرباط، ط١، ٢٠١١.

(٥) معجــم المعانــي الجامــع، موقع إنترنت عــلى الرابط: https://urlc.net/LPvS

(٦) المرجع نفسه.

(٧) المعجم الوسيط مجد الدين محمد بن بعقوب الفيروز آبــادي، دار مكتبة التّربية للطباعــة والنشر، ط٢، بيروت، لبنان د. ت، ص٢٢٢.

(٨) معجم المعاني الجامع، مصدر سابق.

(٩) ابــن منظور: لســان العرب، مادة خــون، دار صادر، ط١، بيروت .

(١٠) لطفــي، فــؤاد لطفــي، خَانَات بلاد الشّــام، بيروت، لبنان، دار الفارابي، ط١ ٢٠١٣، ص٩.

المؤلَّفة من جمال وبغال وخيول، كما كان في الطّابق الأرضي إسطبل للحيوانات المذكورة، وأمَّا الطّابق العلوي فكان بمنزلة فُندُق للتجار، ولم يكن هناك فهم منفصل للخان عن الفُندُق.

ومن المفيد هنا أنْ نوضحَ أنَّ اسمَ الخَان كانَ إلى جانبِهِ القَيسَاريَّة والدّار والوكالة وكلها مرادفات لمفهوم الخَان ويتشابهُ معه بالوظيفة والتَّقسيماتِ والمَهَمَّة، ولكن بحجم مُختلف، حيث لا فرقَ بين القَيسَاريَّة والخَان، بل كانت متداخلة الاختصاصات والنَّشاطاتِ ومختلفة في الأماكنِ والمَساحاتِ التي بُنيتْ عليها، إلا أنّها مُتَشَابِهة في هندستها لدرجة أنه في معظم المراجع التي اطّلعنا عليها كانت تَستعمل كلمَة الخَان مرادفةً للقَيسَاريَّة، ومُرادِفةً لكلمة الفُندُق لاحقًا...

أنواع الخَانَات:

الخَان في الحَضَارَة والتُّراث الإسْلَاميّين نوعٌ من أنواع العماراتِ التّجارية التي تُبنى لتكونَ مكانًا يقصده التّجار والمسافرون للاستراحةِ في طريق أسفارهم وتنقّلاتهم وبيع وتبادل ما يحملونه من سلع. وقد شاعت الخَانَات على طُرقِ القوافل المُمتدّة بين المُدُنِ في العالَم الإسْلَاميّ عمومًا، وفي بلاد الشّام خصوصًا.

الثَّانية: الخَانَات الرئيسة التي كانت تُبنى داخل المُدُن بشكل أبنيةٍ معينة ذوات طُرُز خاصَّة ووظيفة محدَّدة تكمِّلُ الأسواق، وترتبط بها وتقوم بوظائف مساعدة لها.

وإذ يجمع المؤرخون والبحّاثة على وجود نوعين من الخَانَات عبر التّاريخ، فقد انتشرت هذه الخَانَات داخل المُدُن وعلى الطّرق التي تصل بين المُدُن الرئيسة والمراكز التّجارية الهامّة..

ولم يكن وجودُ الخَان مقتصرًا على داخلِ المُدُن فحَسب، بل في بعضِ القُرى والبَلدات الصّغيرة متناثرةً على الطّرُق، وقد باتتْ تحملُ اسمَ الخَان مثل خانِ العَسل، خان السّبُل، خان شَيخون، وخان العَبسي، وخان طُومان، في حلب على سبيل المثال، فقد كانت محطاتٍ للمُسَافِرين والقوافل، تقوم مقام الفُندُق، وفي الوقتِ نفسِهِ تقومُ مُقامَ مكانٍ لبيعِ البَضائعِ وتَبقى خَانَاتُ المُدُن هي الأكبر.

التوزع الجغرافي للخَانَات:

امتدَّت الخَانَات شرقًا وغربًا شمالًا وجنوبًا على طول رقعة امتداد الدّولة الإسْلَاميّة التي وصلت فتوحاتها إلى الصّين والهند شرقًا، وإلى أسبانيا «الأندلس» غربًا، وفي كُلّ الأقطار والأمصار التي كانت تقع تحت سيطرة الدّولة الإسْلَاميّة، وقد نشأت وازدهرت تحديدًا على طرق قوافل التّجارة العالميّة والدّوليّة كطريق الحرير».

خَانَات بلاد الشّام:

أولًا: خَانَات الطّرق

وهي الخَانَات التي كانت تُشَيَّد على الطّرق بين المُدُن والأقطار والحواضر، «كانت تبعد الواحدة عن الأخرى مسافة تتراوح بين العشرين والثلاثين كم، وهي مسيرة يوم للمُسَافِر تقريبًا»[١١]، مثل خان السّبُل، خان العسل، خان كرخان، خان القصير، خان الضّمير، خان أبو الشّأمات، خان القطيفة، خان جيرود، خان القريتين، خان النّبك الخ من الخَانَات المنتشرة على الطّرق في بلاد

(١١) لطفي فؤاد ، لطفي، خَانَات بلاد الشّام، بيروت، لبنان، دار الفارابي، ط١، ٢٠١٣، ص ١٠-١٦.

الشّام كافة[١٢].

ثانيًا: خَانَات المُدُن[١٣]

خَانَات دمشــق: أقدم خان كان في دمشق «دار الضّيافَــة» ١٢٣هـــ/٧٢٠م، و«خــان أماجور» ٢٦٥هـــ/٨٧٨م، وقــد ترافق نمــو الخَانَات مع النّمو الاقتصادي الذي أســهم في ازدياد مساحة الوســط التّجاري نذكر أيضًا من خَانَات دمشــق فُنــدُق الجليــس ٦٣٩هـــ/١٢٤١م، وفُندُق تقي الدّيــن ٥٩٧/١٢٠٠م، وغيرهــا مــن الخَانَــات والفَنَــادِق التّي تعــود للعصر الأيوبــي، كما وجد العديد من الفَنَادِق والقَيسَــاريَّات مثل القَيسَاريَّة الفخريّة عند حَمّام القلانســيّين شــرقي كنيســة بولس بُنيت في العَهد الفاطميّ ٤٣٤هـ/١٠٤٢م، وقَيسَــاريَّة الصّياغ، وهي إلى جوارِ جِدارِ الجامعِ الأمــويّ ٦٣١هـــ/١٢٣٣م، وخــان الزّنجــاريّ ٦٣١هـ/١٢٣٣م .

• خَانَات حلب: مدينة حَلَب أهم مدن بلاد الشّــام بموقعها الهام على طريق التّجارة الدّولي «طريق الحرير» كما أســلفنا، يــوردُ د. لطفي فؤاد لطفي في مؤلَّفه «خَانَات بلاد الشّام: «بلغ عدد خَانَاتها ١١٢ خانًــا منهــا ٩٩ خانًا داخل السّــور أهمُّها: شــيخ نعســان، والتّتن الصّغير، والتّتــن الكبير، والصّابون، والحبال، والبنادقة»[١٤].

• خَانَات بيروت: اشــتهرت بيروت بمينائها الأمر الــذي دفع بالعديد من النّــاس لإقامة أمكنة يأوي إليها المُسَــافِرون ورواحلهم مــن التّجار أطلقت عليها أســماء مختلفة مثل الخَانَات والقَيسَاريَّات والوكالات الخ مثــل خان باب يعقوب، العطارين، درج القلعة الخ

• خَانَــات طرابلــس: خــان الخياطيــن، خــان الصّابون، خان المصريين

• خَانَــات صيــدا: خان الفرنج وأقيــم زمن الأمير فخــر الدّيــن المعنــي الثّانــي في بدايــات القرن السّابع عشر.

• خَانَــات اللاذقيــة: أهمهــا: خان الشّــاه، الخَان الكبير، الخَان الصّغير، خان الدّقَّاق، خان الحنطة.

• خَانَــاتُ حَمَــاه: فــي حَمَاه عــدد مــن الخَانَات الواســعة، توزعت فــي منطقتين رئيســتين هما السّــوق والحاضر. حيث تجــاوزت ٣٣ خانًا مثل خان أســعد باشــا، وخان الحناء، وخان العجيل، وخان رستم باشا...

• خَانَــاتُ حمص: خانُ القيســرية، وخانُ الجَمل، وخانُ الدّروبي.

• خَانَات فِلســطينَ: خانُ الباشــا، وخــان التّجار «جبــل طابــور»، وخــانُ التّجار «نابلــس، وخانُ العمــردان، وخانُ يونــسَ وجميعُها بنيــت ابتداءً من القرن الثّامن عشــر وهذا أيضًا خارج النّطاق الزّمني لبحثنا، لهذا اكتفينا بســرد واســتعراض أهمها.

الطِّراز العمراني للخان:

اشــتركت جميــع الخَانَات بصفــات عامة، وإن تميَّــز كُلّ منهــا بشــخصيته ونوعيتــه ووظائفه وتخصصه والهدف منه، وتناغــم مع طبوغرافية المنطقة التي بُنيَ فيها وطبيعةِ الموادّ المُستعمَلةِ في بنائِها واختلافِ ظروفِ المَناخ في كُلّ منطقةٍ

(١٢) المرجعُ نفسُهُ، ص١٦.

(١٣) المرجعُ نفسُهُ، ص٢٢.

(١٤) لطفــي، فــؤاد لطفــي، خَانَات بلاد الشّــام، بيروت، لبنان، دار الفارابي، ط١، ٢٠١٣، ص٥٤.

وبلـدٍ إضافةً إلى ثقافة الحقبة الزّمنية التي شـيد فيها وحَضَارَتها. والخَانَات لا تختلفُ بهندسـتِها وأقسـامِها الرئيسـة بل تَتَشـابهُ مـع كُلّ خَانَات عصرِهـا حيث كانـتْ الفروقُ فقط في الهندسـةِ والطّـرازِ المِعمَاريّ تختلف مـن عصر إلى عصر حسب تطوّر الفنون والعِمَارَة وموادّ البناء وفنون الزّخارف المِعمَاريّة... فكانت الخَانَات المُشـيّدة على الطّريقة الإسْـلَاميّة ولاحقًا علـى طريقة كُلّ دولةٍ وعصرِها وتقدُّمِها وفنونِ عمارتِها من الدّول اللاحقـة كالأيوبيّة والمملوكيّـة فالعُثمَانيّة الخ... وكانت تختلـف في مسـاحاتِها واتّسـاع رُقاعِها تبعًا للمَكان والمنطَقـةِ التي بُنيت فيها والغرض منها...

وقد سادت نماذجُ أربعةٌ من الخَانَات لاسيما في دمشق: «فهناك الخَان ذو البهو المُغطّى بالقباب، والخَانُ ذو السّاحة المكشوفة، والخَان ذو الطّابق العلـويّ الـذي يُصعد إليه مباشـرة من الشّـارع دون الدّخـول إلى باحةِ الخَان، والنموذج الخاصّ بدمشـقَ في تغطية باحـاتِ الخَانَـاتِ بالقُبابِ»، «كمـا يلاحـظ في هـذه الخَانَات ثلاثـةُ أنواع من المخازن»، «ونلاحظ التّـوزع الجُغرافيّ للخَانَاتِ فهي دومًا في مُحيطِ الأسواق سواءٌ في دمشقَ أم في حلبَ أو حَماه أو حِمص»[١٥].

طُرُز الخَانَات وإدارتها:

«وجـدت ثلاثـة أنواع من الخَانَات: سـلطانية، وكان أكثرها على الطّرقات (خانُ العَسـل، وخانُ طومان، وخـانُ مزيريب، وخـانُ البريج)، ومنها خَانَـات المـدن (الشـاهُ، والصّغيـر، والكبير في اللاذقيـة)، وخان العزي والقبيات وعبد الباسـط والسـفرجلانيّ والصّدرانـيّ، وقطنـا والجوخيّة فـي دمشـقَ، والقَصَّابيّـة وخايـر بـك والقاضي وعمر سـالم في حَلَبَ، والحنَّاءُ والعاشقُ والطرنُ والصَّبَّـاغُ في حَمَاه)، أما الخَانَـاتُ الخيريّة فهي علـى نوعيـن على الطّـرق تسـتفيدُ مـن أوقاف مخصَّصـةٍ لها كخـانِ شَـيخونَ، أو خَانَـاتٌ في المُدُن مُوقَفَة لأعمـالٍ خيريّة كخانِ لالا مُصطفى باشا في القنيطرة.

كانت الخَانَات تدار إمَّا من قبل صاحب الخَان، وإمَّـا من قبـل أنـاس يعملون بالأجـرة: (ناظر- متـولٍّ- وكيل)، وإما من قبل مسـتأجرين للخَانِ (ضامـن أو مسـتأجر)، وكان «البـوَّاب» يسـاعد «الخَانجيّ» في تأجيـر الغرف وحماية البضائع، وكان هنـاك قَبَّانون وحَمَّالون وسُـوَّاس يعملونَ في الخَان، وكان عملهم نهارًا أما في الليل فيكون حُرَّاسٌ خاصُّون بذلك»[١٦].

الضَّرائب:

«كانـت الخَانَاتُ مراكـزَ لجبايةِ الضّرائبِ على البَضائعِ المَبيعة فيها، وقد حدَّدَ الفُقهاءُ الضّريبةَ على المُسـلمينَ بالـزكاةِ ٢,٥٪ على ما حالَ عليه الحَـول، والضِّعف ٥٪ على المُعاهِدينَ، والعُشـر ١٠٪ على الأجانب»[١٧].

أهمية الخَانَات ودورها ووظائفها وتخصُّصُها:

لعبـت الخَانَـات على طرق القوافـل دورًا هامًا وحيويًـا في الدّولـة الإسْـلَاميّة، فإضافة لدورها

(١٥) لطفي، فؤاد لطفي، خَانَات بلاد الشّام، السابق، ص ٦٦.

(١٦) لطفي، فؤاد لطفي، خَانَات بلاد الشّام، السابق، ص ١٢١.

(١٧) المَرجعُ نفسُه، ص ١٢٢.

التّجـاري البحت حيـث كان التّجـار وبضائعهم تتمازج وتُتَبـادل عبر الخَانَات أثنـاء المرور بها والمبيـت فيهـا، وبالتالـي عكسـت دورًا ثقافيًـا وحضاريًـا، كذلك كانت للخَانَـات وظائف عديدة حيوية هامـة بتعدد الغرض الذي أنشـئت لأجله والدّور الذي تقوم به. وتأتي هذه الأهمية الحيوية في عـدة تمظهـرات أهمها التّجارية والسـياحية والدّيمغرافية والدّينيـة والحضارية للخَانَات وقد أثبـت الباحـث د. لطفي فـؤاد لطفي فـي كتابه «خَانَات بلاد الشّـام» أهم وظائـف الخَانَات على الشّـكل التّالـي: الوظيفـة العسـكرية، الوظيفة البريديـة، الوظيفة الفُندُقيـة، الوظيفة التّجارية، الوظيفة المستودعية، الوظيفة السّكنية، الوظيفة القنصلية.

والخَانَـات على تعدّدِها وانتشـارِها فقد كانتْ مُتفاوتـةَ الحُجـومِ والوَظائـفِ وتحمـلُ أسـماءَ تَخصّصيّة بنوع السّلعةِ التي تُباعُ فيها أو الحِرفةِ التي تُمـارس فيها: كخانِ الحَريـر وخانِ القطنِ وخـانِ الصّوفِ وخـانِ الحِبالِ وخان البَالِسـتان (أقمشـة)، وخانِ العطّارينَ وخـان الدّبسِ وخانِ الجُمـركِ وخـانِ الجَرخيّـة وخـانِ الدّكّـة لبيـع الجَـواري، وبعـض الخَانَـات غيَّـرتْ تَخصُّصَها لكنَّهـا بَقيـتْ مُحافظـةً على اسـمِها مثـل: خانِ العَصرونيّـة، وخانِ العَمودِ، وخـانِ الزّيتِ، وخانِ الزّعفرانيّ، وخانِ السّـفرجلانيّ، وخانِ المُراديّة. الخ، وبعضُها ارتبطَ اسمُه بمن أنشأ هذه الخَانَات مثـل خانِ الوَزيـر، وخانِ خير بك، وخانِ أسـعد باشـا العَظم، وبعضُهـا فيها أكثر من اسـمٍ مثل خانِ الكتّانِ ويحملُ أسماءَ أخرى.

خانُ البَنادقَة (١٢٠٧-٢٠٠٧ م).

أحد خَانَات حلب، يقع في منطقة الأسواق قرب سـوق الزّرب، يعود تاريخه لعـام ١٢٠٧ م، كان ينزل فيه تُجّـار البُندقيّة من إيطاليـا وقنصلُهم، موجـودٌ حتى الآن، وسـمّي بخانِ البنادقة نسـبةً لمدينـةِ البندقيـةِ «فينيسـيا» في إيطاليـا، وكان قد أنشـئ نتيجـةَ اتفاقيةٍ تِجاريّةٍ بيـن جُمهوريّةِ البُندقيّةِ التي أرسـلتْ عـام ١٢٠٧ميلادي وزيرًا اسـمُه «بيتـرو مارنيانـي»، وكانت حَلـبُ مملكةً أيوبيّـة يحكمُهـا الظاهـر غازي، وقد سَـمَح لهم بالبيعِ والشّراءِ والتَّداول بعملتهم المحليّة في هذا الخَان آنذاك، والنّصُّ الدّقيق للاتفاقية موجودٌ مع مهمـة وتقسـيمات الخَان ويحددُ نـصُّ الاتفاقية العُملاتِ المُستخدمةَ الموحَّدةَ للموظّفين، والخَان كانَ مُزودًا ببئرٍ للمياهِ وفرنٍ للخُبز...الخ.

ويفيدنـا المـؤرخُ والباحـثُ الأسـتاذ محمّـد قجّـة[١٨] بأنَّه «في عـام ٢٠٠٧ جـاءت بعثة من مدينة البُندقيّة في إيطاليا إلى حلب واحتفلنا معًا في حلب بمرور ٨٠٠ سنة على افتتاح هذا الخَان الذي كان خانًا وإسطبلًا وقنصليّة».

من الخَانَات إلى الفَنَادِق:

«طـرأ تعديـلٌ على خَانَات دمشـقَ بعد دخولِ المِصرييـنَ إليهـا، فاسـتخدَموا الصّالـحَ منهـا لإيواءِ جنودِهـم قبل بناءِ الثّكناتِ لهُـم، وقد نَظَّمَ المصريون العمـل في الخَانَات، وَوَضعوا دَلَّالًا أو أكثـر، كما تطورتْ الأسـاليبُ التّجارية مع تَطور

(١٨) باحث ومؤرخ من حلب السّـورية له مؤلفات عديدة في التّاريـخ والبَحـث والتوثيـق والتحقيـق وخاصة فيما يخص حلب...

وسـائل النّقل، فأصبـح التّجار يتحركـونَ لعَقدِ الصّفقـاتِ دون مرافقـةِ رواحلِهـم وبضائعِهم، فانتفتْ الحاجة للإسطبلاتِ والمُستودعاتِ، بينما دعتْ الحاجةُ إلى نشـوءِ خدمـاتٍ جديدة لتطوير أمكنةِ النّومِ وخدماتِها وكلِّ ما يتَّصلُ بها.

ولاحقاً في العصور التّالية؛ المَملوكي والعُثمَانيّ نجد أنّ الاستقرار السّياسيّ الطّويل شجَّع الحركة التّجاريـة حتى افتتـاح قنـاةِ السّـويس فتَحوّلَ الطّريـقُ العالميُّ إلـى مَمَرٍّ بحـريّ رخيص أكثر مـن المَمَرّ البريّ الطّويلِ المُكلف، ففقَدَت خَانَاتِ كثيرة دورها الفُندُقي.

فـي هـذه الحالة نجد أن الانفصالَ بينَ وظيفةِ الخَـانِ ووظيفةِ الفُندُقِ حَصلتْ فيما بعد بسـببِ تطور أساليب التّجارة وطرقِ النّقلِ.

ونلفـتُ هنا إلى أنَّ ما نقولُـهُ عن حلبَ في تلك الفتـرةِ ينطبقُ الى حدٍّ كبيـر على مَدينة المَوصلِ في العِراقِ لأنَّهما كانتا تَقعانِ على طريقِ الحَرير الدّولـيّ، ويَنطبقُ أيضًـا على مَدينـةِ «الرَّيّ» في إيرانَ، وهي طهرانُ الآن، بل جزء من طهران لهذا نرى التّشابُهَ العمرانيّ والوظيفيّ لهذه المُدُن من حيثُ خدمةُ الخَانِ ومن حيثُ خدمةُ الفُندُق.

نهاية الخَانَات:

لاحـتْ النّهايـةُ مع غَزوةِ تَيمورلنـكَ في بدايةِ القرنِ التّاسـعِ الهجريّ، الخامسَ عشرَ الميلاديّ، أعقبَها اكتشافُ رأسِ الرَّجاءِ الصّالح عام ١٤٩٧، ثم شـقّ قَناةِ السّـويس عام ١٨٦٩ ليوجّه ضربةً قويـة لتجارةِ الشّـرقِ الأمـر الـذي أدَّى إلى عدمِ استخدامِ الخَانَاتِ التي هُجرتْ واحدًا تلوَ الآخر.

خاتمة

هكـذا نخلُـصُ إلى أنّه في العصورِ الإسْـلَاميّة المُتتابعـةِ كانَ في بلادِ الشّـامِ خَانَـاتٌ تعودُ إلى كُلّ تلـكَ المَراحـلِ التي عرفَتها العهـودُ المُتَتَاليَة منذ العَهد الراشـديّ حتى العهـدِ الحَديث مرورًا بـكل الدّولِ التي عرفتها وتركت كُلٌّ منها بصماتٍ عُمرانيّـةً خاصّةً في المدينة. ولعلّ الفترة الأيوبيّة شـهدتْ غنىً في الحَرَكـةِ العُمرانيّة، وكذلكَ الأمرُ في مـا يتعلَّقُ بالتّطـوّرِ الاقتصاديّ الواسـعِ في مطلـع العَصـرِ العُثمَانيّ ومـا رافقَهُ مـن عِمَارَةٍ ضروريةٍ كالخَانَاتِ والأسواقِ والقَيسَاريَّات.

المصادر والمراجع

- ابن سـعد، الطبقات الكبـرى، تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٠.
- ابـن جبيـر، محمد بن أحمـد الكناني الأندلسـي، رحلة ابـن جبير. القاهـرة. الهيئة العامة لقصـور الثقافة،ط٢، القاهرة، ١٩٩٨.
- ابن منظور: لسان العرب، دار صادر،ط١، بيروت.
- خلف أحمد محمود أبو زيد، «الخانات... منشآت فندقية تحكي قصـة حضارة « مقال في الأنترنـت، على الرابط: https://2u.pw/CH٤٩pHln.
- لطفـي فؤاد لطفـي، خانات بلاد الشـام، دار الفارابي، ط١،بيروت، ٢٠١٣م.
- مجد الديـن محمد بن يعقوب الفيـروز آبادي، المعجم الوسيط، دار مكتبة التّربية للطباعة والنشر، ط٢، بيروت، لبنان د. ت، ص٢٢٢.
- معجـم المعانـي الجامع، موقـع إنترنت علـى الرابط: https://urlc.net/LPvS
- ياغـي، غزوان، المعالم الأثرية للحضارة الإسـلامية في سـورية، المنظمـة الإسـلامية للتربية والثقافـة والعلوم، ط١،الرباط، ٢٠١١م.
- يحيـى، فؤاد. جـرد أثري لخانات دمشـق. مقال، مجلة الحوليّات الأثريّة، مجلد٣١، دمشق، ١٩٨١م.